

الخصوصية الاجتماعية لمدينة "كالاما" خلال الفترة الرومانية

The social peculiarity of the city of "Kalama" during the Roman period

جباله محمد^{1*}، مقدم مختارية²

¹ جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر (الجزائر)، E-mail : mohamed.djebella@univ-mascara.dz

² جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر (الجزائر) E-mail : mokhtaria.mokaddem@univ-mascara.dz

مخبر الأبعاد القيمة للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر- جامعة وهران2

تاريخ القبول: 2024/11/01

تاريخ الإرسال: 2024/08/25

ملخص:

إن هدف هذا المقال هو تسليط الضوء على الخصوصية الاجتماعية التي ميزت مدينة "كالاما" خلال الحكم الروماني وتأثيرها في تركيبة المجتمع القالعي القديم؛ وذلك من خلال التطرق في البداية الى اصل هذه التسمية (كالاما)، ثم نتعرض للخصوصيات الاصلية: الدينية (سيطرة القيم والمعايير النوميديّة على حياة الافراد والجماعات)، اللغوية (تراجع انتشار اللغة الليبية، البونبة، وخاصة الفينيقية في الارياف)، الاجتماعية (مدى الحفاظ على الروابط القبلية التي تربط أفراد المجتمع)، والثقافية والترفيهية (مدى الاقبال على مؤسسات عرض ونشر الثقافة الرومانية)، والاحراءات التي والاساليب التي اعتمدها الاحتلال الروماني من اجل نشر وتعميم الخصوصية الاجتماعية والثقافية الرومانية.

كلمات مفتاحية: المدينة؛ الخصوصية الاجتماعية؛ الثقافة؛ "كالاما"؛ الفترة الرومانية.

Abstract:

The aim of this article is to shed light on the social characteristic that distinguished city of "Kalama" during the Roman reign and its impact on the composition of the ancient society of Guelma. This will be approached by initially discussing the origin of the name Kalama, followed by an examination of the religious original peculiarities (the dominance of Numidian values and norms in the lives of individuals and groups), linguistic (the decline of the spread of the Libyan language, Punic, and especially the Phoenician in rural areas), social (the extent of maintaining tribal ties that connect members of the community), and cultural and recreational (the extent of engagement with institutions that showcase and promote Roman culture). Additionally, we will explore the measures and methods adopted by the Roman occupation to disseminate and generalize the Roman social and cultural characteristics.

Keywords: City, social privacy, culture, "Calama", Roman period.

1- مقدمة:

إن الحديث عن الخصوصية الاجتماعية والثقافية لمدينة "كالاما" يتطلب منا، في المقام الأول، توضيحاً لما يقصد بهذين المصطلحين؛ تتفق الأدبيات السوسولوجية أن لكل مجتمع خصوصية اجتماعية وثقافية تميزه عن المجتمعات الأخرى. وعند محاولة تفكيك هذا المفهوم فإنه يمكننا القول أن الخصوصية الاجتماعية والثقافية ترتبط، في العادة، بالدين، سواء كان سماوياً أو وضعياً، الذي ارتضاه مجتمع معين لنفسه؛ وهناك من يضيف إلى الدين متغيرات أخرى على غرار: القانون، العرف، القواعد، المبادئ، القيم المعايير، العادات والتقاليد.

فالمجتمع، إذا اعتمدنا المقاربة البنائية الوظيفية، يتشكل من مجموعة من البناءات (اجتماعي، اقتصادي، ديني، ثقافي، تربوي-تعليمي، سياسي، عسكري...الخ)؛ وكل بناء يضم مؤسسات (ذات طابع اجتماعي، اقتصادي، ديني، تربوي...الخ)؛ وكل مؤسسة تضم جماعات لكل منها دور محدد وهذا الجماعات تضم أفراداً. وهذا الكل (أجزاء المجتمع) تؤطره نظاماً اجتماعية (قوانين، معايير، قيم، مبادئ، عادات وتقاليد)؛ وهذه النظم تشكل ما يسمى الخصوصية الاجتماعية والثقافية؛ وهذه الأخيرة تكون نابعة، في الغالب، من الدين أو النظام الاقتصادي المتبنى. وما يتوجب الإشارة إليه أيضاً هو أن الخصوصية الاجتماعية والثقافية تكون مختلفة بعض الشيء بين المدينة والريف، حيث تعرف أوجهاً في القرى وتراجع بعض الشيء كلما اقتربنا من الحواضر؛ بمعنى أن سكان الأرياف يكونون أكثر تمسكاً وتشبثاً بخصوصيتهم مقارنة مع من يسكن المدن.

وبناءً على ما سلف فدراستنا الراهنة تحاول أن تميّط اللثام عن الخصوصية الاجتماعية والثقافية لمدينة "كالاما" ومدى تأثيرها بالخصوصية الاجتماعية والثقافية للاحتلال الروماني الذي وظف الكثير من الأساليب والمنشآت لـ"رومنة" سكان هذه المدينة، على غرار المدن الإفريقية الأخرى؛ ولتحقيق هذا الهدف العلمي فقد ارتأينا أن نتطرق إلى: أصل تسمية مدينة قالمة وموقعها، ثم مدى تأثيرها بظاهرة الرومنة من خلال مؤشرات: الدين، اللغة، التغيرات الاجتماعية، الثقافة والترفيه وفيما يأتي تفصيل لذلك:

2- "كالاما" (Calama): في أصل التسمية والموقع الجغرافية:

إن أول ما يتبادر إلى ذهن المتلقي عند سماعه كلمة "كالاما" هو التساؤل عن أصل هذه التسمية وظروف ظهورها؛ بل من هو أول من استعملها؟ وفي أي عصر كان ذلك؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات نستعين بما ذهب إليه الباحث "محمد البشير شنيقي"، حيث يقول: "إن غياب اسم المدينة (كالاما) في النصوص والخرائط القديمة بدءاً من "بليينوس" القديم إلى "بطليموس"، فتح الباب لاجتهادات المؤرخين، خاصة وأن اسم (كالاما) ليس مشتقاً من ألفاظ لاتينية ولا معنى لها في هذه اللغة. ثم إن النقوش "البونية" المعثور عليها في عين المكان احتوى كثير

منها على لفظ "ملكا" (Malaca) في مقاطع "نذرية" أو جنائزية، كل هذا حمل بعضهم على القول بان "كالاما" (Calama) هي قلب من طرف اللاتينيين للفظ (ملكا) "البوني" أو الفينيقي" (شنيقي، 2003، صفحة 58).

هذا فيما يخص البحوث الأكاديمية؛ أما إذا جئنا إلى التراث الشفوي المتوارث بمدينة قالمة نجد بعض القصص التي تروى من قبل كبار السن خاصة تدور في مجملها انه كان هناك شخص أرسل في مهمة معينة في زمن القحط ولكنه وجد الماء (لقى الماء) في مكان كان مارا به، ومنذ ذلك الحين أصبح ذلك المكان (قالمة حاليا) يوصف، عند الحديث عنه، بالمكان الذي وُجد (لقى) فيه الماء؛ فأخذ هذا الوصف (لقى الماء) يتبلور ويتحول إلى أن جمع في كلمة واحد هي "قالمة". هذا وتبقى هذه القصة مجرد حكاية تتوارث بين الأجيال؛ حيث يؤكد اغلب الاكاديميين المهتمين بتاريخ هذه المدينة انه لا أساس لهذه الرواية من الصحة.

أما عن كيفية اكتشاف "كالاما" (قالمة) فقد "ظلت خرائب غير معروفة إلى أواسط القرنين الماضيين حيث كان يخلط بعضهم بين مدينة "سوتول" (Suthul)، المجهولة الموقع حاليا، وهي المدينة المذكورة عند "صالستوس" وبين خرائب قالمة (كالاما). من ذلك أن "دورو دي لمال" (Dureau de la malle) ذكر في تقريره الذي رفعه إلى الأكاديمية الفرنسية عام 1843م أن قالمة "كالاما" هي "سوتول" (شنيقي، 2003، صفحة 59). لكن هذا التقرير لا يصمد خاصة إذا اعتمدنا مرجع آخر يتحدث عن تصنيف المدن الإفريقية ذات المنشأ الليبي- النوميدي، حيث يصنفها إلى: عواصم ومدن؛ وضمن المدن الملكية نجد الجدول المخصص لذلك يحدد الاسم القديم والحديث للمدينة، حيث يذكر مدينة "سوتول" (Suthul)، ويشير إلى أن مكانها يتواجد بجهة سوق أهراس (الجزائر). كما يذكر مدينة "كالاما" (Calama)، ويقابلها مدينة قالمة (الجزائر) (العربي، 2008، الصفحات 44-45). وبناء على ذلك يتضح أن المدينتين متجاورتين وليستا نفس المدينة.

وإذا حاولنا أن نحدد تاريخا لظهور مدينة "كالاما" فالأمر ليس باليسير؛ وضمن هذا السياق نجد الباحث "محمد خير اورفه لي" يقول: "تواجدت مدينة قالمة (كالاما) قديما منذ العهود النوميديّة إلا أن أقدم أثارها حتى الآن لا تصعد لما قبل القرن الثاني قبل الميلاد. وقد بقيت محافظة على نظامها الإداري والنوميدي حتى القرن الأول ميلادي. فالخصائص النوميديّة البونية ظاهرة بشكل واضح على معالمها في هذه الفترة. تدخل بعدها ضمن المدن الرومانية لتصبح بلدية خلال عهد "هادريانوس" ثم مستعمرة في بداية القرن الثاني لكي تستمر في تواجدها طوال العصور القديمة" (لي، العدد 06، 2007، صفحة 29).

أما فيما يتعلق بالموقع الجغرافي لمدينة "كالاما" فهي "مدينة صغيرة في إقليم نوميديا تواجدت منذ العهود البونية النوميديّة واستمرت طوال العصور القديمة والإسلامية. فهي تمتد على منحدر خفيف على أسفل سفوح جبل ماونة الذي يشرف على واد سيبوس" (لي، العدد 06، 2007، صفحة

30). كما أنها تقع في "مكان يصل ارتفاعه إلى 270 متر من مستوى سطح البحر. يمتد بجوار المدينة سهل خصيب جميل مشكلا ضفاف السيوس، وهو عصب قالمه الاقتصادى" (شنيتي، 2003، صفحة 58)

إن ما يتوجب الإشارة إليه هو أن مدينة "كالاما" تعتبر من أقدم المدن في الشمال الإفريقي التي عرفت العديد من الحملات الاستعمارية وما يرافقه من تعدد في الخصوصيات الاجتماعية والثقافية عبر مختلف المراحل التي عرفتھا؛ وبناءً على ذلك تحاول الدراسة الراهنة أن تستقصي السمات الاجتماعية والثقافية التي ميزت هذه المدينة خلال الفترة الرومانية.

3- الخصوصية الاجتماعية الثقافية لمدينة "كالاما" خلال الفترة الرومانية:

يقول "محفوظ قداش": إن التوسع الروماني الذي كان محدودا نوعا ما في القرن الأول قد حقق تقدما أكيدا في القرن الثاني. كان الرومان قد احتلوا في أول الأمر بعض الموانئ في نفس الوقت الذي احتلوا فيه مناطق سهلة في شمال تونس وحتى سیرتا. بفضل الطرق الرومانية امتدت جهة الاحتلال بعد ذلك إلى السهول العليا عن طريق "ميلوف" (ميلة) و"كويكول" (جميلة) و"موبت" و"سيتيفيس" (سطيف)، ومن هنا وصلت وادي الشلف انطلاقا من مستعمرات "اكالكيد" (حمام ريغة) و"زركشبابار" (مليانة) و"ابيدوم" و"نوفوم" (قداش، 1993، صفحة 131). وعليه فانه يمكن استنتاج أن مدينة "كالاما"، ربما، أصبحت مستعمرة رومانية خلال القرن الميلادي الثاني. وهذا الموضوع لا يهمننا لاعتبارين: الأول؛ مسألة التخصص، أما الثاني؛ فيتمثل في هدف هذه المقالة والتي تسعى إلى إبراز الخصوصية الاجتماعية والثقافية لمدينة "كالاما" خلال العصر الروماني؛ لكن، قبل ذلك، ما هي الخصائص الاجتماعية والثقافية التي ميزت هذه المدينة قبل الاحتلال الروماني؟

تشير الدراسات المتوفرة حول هذه المسألة (الخصوصية الاجتماعية والثقافية لمدينة كالاما قبل مجيء الرومان) إلى أنها كانت عبارة عن مزيج بين السمات الفينيقية والنوميديّة؛ وضمن هذا السياق نجد الأستاذ "محمد البشير شنيتي" يقول: "يتضح من الشواهد الأثرية العائدة إلى الفترة البونية- النوميديّة أن "كالاما" (مالكا) كانت ركزا حضريا هاما في عمق الإقليم النوميدي، وأنها احتضنت مجتمعا خليطا مكونا من عناصر فينيقية ونوميديّة، إن معبوداتهم كان يغلب عليها الطابع السامي (الفينيقي- الكنعاني)" (شنيتي، 2003، صفحة 60).

إذن، وبعد أن تعرفنا على الخصوصية الاجتماعية والثقافية لمدينة "كالاما" قبل الفترة الرومانية جاء الدور الآن لمعرفة التغيرات التي حصلت على العديد من المستويات (الخصوصيات): الدينية، اللغوية، الاجتماعية، الثقافية والترفيهية.

وقبل البدء في استعراض السمات والخصائص الاجتماعية والثقافية التي ميزت "كالاما" خلال هذه الفترة (الرومانية)؛ فانه يتوجب الإشارة إلى المنطق المنهجي الذي سنعتمده في ذلك،

حيث ارتأينا أن نعرض في بداية كل عنصر الخصوصية العامة للمجتمع الروماني ثم نبين مدى تأثيرها في

الجماعات والمؤسسات الاجتماعية والثقافية في مدينة "كالاما"؛ وفيما يأتي تفصيل لذلك:

1.3- الخصوصية الدينية:

إن الحديث عن الخصوصية الدينية لمدينة "كالاما" خلال الفترة الرومانية يقودنا مباشرة لما يعرف بالرومنة (نشر وتعميم الخصوصية الاجتماعية والثقافية الرومانية) التي تبناها الاستعمار الروماني والتي لم تنتشر، في البداية، بشكل كبير نظرا لامتداد هيمنة القيم والمعايير النوميديّة على حياة الأفراد والجماعات؛ وضمن هذا السياق يقول الأستاذ "بلقاسم رحمانى": "وعلى حد قول عدد من الباحثين فإن الرومنة لم تتجاوز في الواقع المدن الكبيرة ذات التأثير الروماني القوي، والتي سماها البعض بالحضارة الرومانية الإفريقية، في حين ظل الدين محافظا على إفريقيته، ونسجل هنا أن اللغة اللاتينية وجدت في المدن مكانا خصيبا لها أمام خلوها من منافسة لغوية حقيقية كبلاد الإغريق، لذلك فإن البونية والليبية تراجعت وارتبطت بالجانب الطقوسي الجنائزي" (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، صفحة 19)

وإذا حاولنا تتبع الخصوصية الدينية لمدينة "كالاما" فيذهب محمد البشير شنيقي إلى أنها "عرفت، كغيرها، من المدن النوميديّة حركة التنصير منذ عام 305م بمناسبة انعقاد اجتماع أساقفة نوميديا بمدينة "كيرطا" الذي حضره أسقف مدينة "كالاما"، وكان يدعى "دوناتوس"، وقد جرى حوار بينه وبين رئيس المجلس حول طبيعة الكتب المقدسة، ويظهر أن الجدل المذهبي بدا منذ ذلك الوقت ينحو نحو الانشقاق بتمحوره حول اتجاهين: الدوناتية والكاثوليكية، وكانت "كالاما" إحدى معاقل النحلة الدوناتية المناهضة للسلطة الرومانية وحلفائها الكاثوليك" (شنيقي، 2003، صفحة 62).

ويضيف عن ذلك "انه قد ورد في وثائق الكنيسة الإفريقية أيضا أن أسقف "كالاما" كان مقدم الأساقفة بمدينة "هيون" عام 394، وكان دوناتيا. ولما اشتد النزاع بين الطرفين كانت إحدى حصون الثورة والتمرد على الكنيسة الرسمية والسلطة الإمبراطورية، وقد سيطر على المدينة جماعات المتمردين الريفيين الذين نعتهم "أوغسطين" بالداورين، وهم ثوار ريفيون في تقديرنا. وقد ضج منهم هذا الأسقف واستنجد بالسلطة البلدية ضدهم، ويذكر في إحدى رسائله أنهم عاثوا في الكنائس الكاثوليكية التابعة له في "كالاما" وإقليمها قائلا بأنهم أشاعوا الوثنية وأذلوا الأساقفة في "كالاما" وضواحيها" (شنيقي، 2003، صفحة 63).

وتشير المخلفات والشواهد الأثرية إلى أن الاحتلال الروماني قد سعى إلى رومنة مدينة "كالاما" من خلال اعتماد نمط عمران يقوم على تشييد المباني التي تعبر عن خصوصيته المسيحية؛ وفي هذا الصدد نجد الأستاذ "محمد خير اورفه لي" يصف هذه المدينة بقوله أنها: "كانت تمتد على

سفح منحدر بشكل خفيف، محاطة بالأسوار وهي تحيط بالمدينة غير مضلعة حسب امتداد المدينة. فيها ساحتان عامتان واحدة قديمة والأخرى جديدة على الأكثر أنها من عهد الأسرة السيفيرية على شاكلة مدن "جميلة" و"لتيس ماغنا"، فيها احد الطرقات شمال جنوب من نوع "الكاردو" أو "الكاردين"، ليس بعيدا عن المسرح الواسع والجميل الذي هو مكان تسلية وثقافة، هذا بالإضافة إلى الحمامات الكبرى التي تعبر عن رخاء وسعة المدينة. فيها مقدسات "لنبتون" و"ابولون" والهة الرخاء. أما معبد بعل حمون- سارتورن فهو خارج المدينة من نوع المعابد المرتفعة. هذا بالإضافة إلى الكنائس التي تواجدت مع انتشار المسيحية في المدينة" (لي، العدد 06، 2007، صفحة 35)؛ وضمن نفس السياق نجد دراسة أخرى تؤكد صاحبها أن "من مجمل الرموز التصويرية المنحوتة على الأنصاب البونية المحفوظة في المتحف الروماني بقالة، نجد الرموز الإلهية المنسوبة لتانيت والصولجان والرموز الفلكية كالزهرة والنجم والأكثر حضورا الهلال القمري المتجه نحو الأعلى والرموز النباتية والهندسية والقرايين الحيوانية والغذائية" (الزهراء، المجلد 12، العدد 01، 2023، الصفحات 122-123).

أما عن مدى تأثر سكان مدينة "كالاما" بالخصوصية الدينية الرومانية فعلى الرغم من انتشار المعابد والكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية، إلا أنها بقيت محافظة على ترسبات وتراكمت الممارسات الدينية البونية؛ وفي هذا الصدد تقول الأستاذة "بلعيد فاطمة الزهراء: "و بناء على الدراسة التي اعتمدت على استنطاق الأنصاب و البحث في الرموز و مدلولاتها، فإننا حاولنا أن نبرز ملامح الفكر الديني لدى سكان منطقة قالة و تسليط الضوء على جزء بسيط من الجانب العقائدي و بعض الطقوس الدينية التي مورست قبل التواجد الروماني. و هذا دلنا على تمسك السكان بالطقوس الدينية البونية، و هو يعكس في الحقيقة ورعهم بالآلهة البونية التي استمرت حتى بعد قدوم الرومان و لكن تحت مسميات لاتينية" (الزهراء، المجلد 12، العدد 01، 2023، صفحة 132)؛ بل إنها تذهب إلى أكثر من ذلك، حيث تقول: "كما استنتجنا أن العادات البونية التي قد يزيد عمرها عن خمسة و عشرين قرنا ، لا تزال تمارس لحد اليوم و تمثل ذلك في بعض الأعياد المحلية كعيد الربيع ، حيث بقيت جداتنا و أمهاتنا تحتفظ بتلك العادات كصنع حلوى "البراج" و تفريقها على أهل و الأقارب" (الزهراء، المجلد 12، العدد 01، 2023، صفحة 132).

وبناءً على ما سلف ذكره يتبين أن مدينة "كالاما"، ورغم تبني الاحتلال لسياسة الرومنة (العمل على محاولة استدماج الخصوصية الدينية الرومانية) إلا أنها حافظت على خصوصيتها الدينية التي تتصل بالطقوس والممارسات البونية، كيف لا وهي التي ظهر فيها الصراع الطائفي بين المسيحية "السياسية" (عبادة الملك) والحركة الدوناتية التي انتشرت في القرى والأرياف من منطلق أنها تدعو إلى تحقيق المساواة والعدالة، فضلا عن أنها ترفض رفضا قاطعا ظاهرة عبادة وتقديس القيصر (الملك). هذا فيما يخص الدين؛ لكن ماذا عن اللغة اللاتينية؟

2.3- الخصوصية اللغوية:

إن أول شيء يتبادر إلى ذهن القارئ عند سماعه لمفهوم الخصوصية اللغوية هو مدى تأثير لغة جديدة (وافدة) في تجمع سكاني معين؛ وإذا كان سياق هذا الكلام يتصل بمدن محتلة من قبل الاستعمار الروماني فاللغة المقصودة هنا هي لغة المستدمر؛ اللاتينية التي عمل على نشرها وتعميمها بقوة القانون؛ وفي هذا يقول الأستاذ "بلقاسم رحمانى": "ومما تجدر الإشارة إليه أيضا انه خلال الاحتلال كان للغة والثقافة اللاتينية تميزا، حيث شهدت انتشارا واسعا بفعل إلزامية استعمالها في النظم الإدارية والاقتصادية وخاصة القانونية التي أقرت جملة من الشروط للحصول على المواطنة ومنها الثقافة الرومانية ومفتاحها اللغة اللاتينية، وبذلك فإنها تُعد أولى اللبنة في سياسة الرومنة" (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، صفحة 07).

أما عن الأساليب التي اعتمدها الاحتلال الروماني من اجل نشر اللغة اللاتينية فتتمثل في النظام التعليمي، حيث نجد أن "مناهج التعليم التي كانت تركز على القراءة والكتابة والحساب ثم النحو، وكان على التلاميذ أن يحفظوا بعض أمهات الكتب في مرحلة التعليم الأولى، وفي المراحل اللاحقة تمتد الدراسة إلى الفنون والعلوم الأخرى (الشعر، الموسيقى، والفلسفة والرياضيات...)، ونظرا لانتشار مراكز التعليم في الحواضر، فقد كان مجتمع المدينة أكثر تأثرا بالرومنة اللغوية من غيره" (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، الصفحات 07-08).

وإذا حاولنا تتبع الخصوصية اللغوية في مدينة "كالاما" فكسائر "مواقع المدن القديمة، وُجدت بها عدة نقوش (ليبية، بونية، ولاتينية) تتصدرها في المرتبة الأولى اللغة اللاتينية بنوعها الجنائزي والنذري، فاعلم هذه المجموعة يعود إلى الفترة الوثنية، والتي تم جمعها وتدوينها خلال الاحتلال الفرنسي" (اخربان، المجلد 05، العدد 12، ديسمبر 2017)

إذن تشير الكتابات الأثرية إلى أن اللغة اللاتينية كان تستعمل في مدينة "كالاما" وهذا يعود، في تقديرنا، إلى أنها كانت تصنف، من قبل السلطة الرومانية، "كمدينة مقر خزينة الدولة (مركز دائرة جبائية) (العربي، 2008، الصفحات 44-46). أما إذا انتقلنا إلى المناطق الريفية فالأمر مختلف تماما، لان البربر، علي حد تعبير "مبارك بن محمد الميلي" وبعدها "خالطو الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا إلى خطهم. حتى صاروا لا يتكلمون بغير الفينيقية. وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد ماسينيسا...ولم تزل حية بنواحي قالمة وبونة إلى أيام القديس أوغسطين. غير أنها لم تكن إذ ذاك لغة مدرسية، والبلغاء يترفعون عنها ويتظاهرون بجهلها، وإنما هي لغة البوادي الذين كانوا يجهلون اللاتينية إلى ذلك العهد فكان الرومان يحتاجون في ذلك الحين إلى مترجم عارف بالفينيقية (شني، 2003، الصفحات 157-158) عندما يضطرون إلى مخاطبة البداية من البربر" (الميلي، دون سنة، صفحة 166).

"وقد قاومت اللغة البونيقية الغزو اللاتيني ففي المدن بصورة متفاوتة الفعالية، حيث ضعفت في مدينة كرطا أمام تعاظم شأن المجتمع اللاتيني الذي انغرس بها منذ سقوط مملكة نوميديا عام 46 قبل الميلاد على يد قيصر الذي اقطع مرتزقة سيتوس كرطا وإقليمها، بينما صمدت "كالاما" (قالمه) و"مكثر" و"دوقه" وغيرها مدة أطول في وجه المد اللاتيني" (شنيقي، 2003، صفحة 158).

وعموما وفيما يتعلق بهذا الموضوع نجد "عبد الحميد عمران" يقول: "سعت الإدارة الرومانية في بلاد المغرب القديم إلى نشر اللغة اللاتينية بين الأهالي، والعمل على فرضها باعتبارها اللغة المعبر عنها في جميع المؤسسات الرسمية والمحاكم والمجالس البلدية وكتائب الجيش وغيرها. ورغم أن هذه اللغة الدخيلة بدأت تنتشر إلى جانب اللغة المحلية، إلا أن أغلبية الأهالي الذين تعلموها كانوا ينطقونها بصعوبة ويستخدمون تعابير غير سلمية، في حين اكتفى أغلبهم بلهجته القديمة، وما يدل على ضعف استخدام هذه اللغة الدخيلة هي أخطاء النحو والكتابة التي حملتها الكثير من النقوش الجنائزية في الأرياف" (عمران، المجلد 03، العدد 10، 2013).

إذن وبناءً على سبق يتبين أن اللغة اللاتينية، باعتبارها اللغة الرسمية للاستعمار الروماني، قد كانت مقتصرة فقط على مدينة "كالاما"، وان استخدامها كان ينتشر ضمن المؤسسات الرسمية للدولة فضلا عن أنها كانت تعتمد من قبل شرائح اجتماعية من مثقفي النظام السياسي والمستفيدين من بقاءه. وإذا كان هذا هو حال انتشار اللاتينية فهذا يعني أن المجتمع "الكالامي" القديم كان يتشكل من شرائح اجتماعية تتدرج في السلم الاجتماعي بناءً على قربها أو بعدها عن الإدارة الرومانية.

3.3- الخصوصية الاجتماعية:

يقول الأستاذ "محمد البشير شنيقي": "من مميزات القوانين الرومانية المتعلقة بالوضع الاجتماعية لسكان الولايات أنها تقوم على مبدأ الطبقة الاجتماعية، وعلى فكرة عنصرية تجعل للإنسان الروماني الاعتبار الأول بين بقية الأجناس الأخرى. غير أن هذه المميزات كان يلزمها مبدأ إدماجي يفسح المجال لمختلف المجتمعات الأجنبية لأن ترتقي إلى المجتمع الروماني بصفة تدريجية" (شنيقي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب وسياسة الرومنة 146 ق.م- 40 م، 1985، الصفحات 84-85)

وضمن نفس السياق يقول الأستاذ "عبد الحميد عمران": "صاحب الاستيطان الروماني لإفريقيا ازدياد حدة الفقر من أجل تشتيت الروابط القبلية التي تربط أفراد المجتمع فيما عدا المناطق التي بقيت تحافظ على استقلالها، حيث حافظت على بنيتها القبلية ذات الروابط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وصارت القبائل الخاضعة للاستيطان مقسمة إلى طبقات

جديدة مرتبة بحسب أهمية كل طبقة في حركة الإنتاج" (عمران، المجلد 03، العدد 10، 2013، صفحة 20).

وبما أن الاحتلال الروماني وجد المجتمع النوميدي، عامة، ومدنه خاصة على غرار "كالاما"، يؤسس، في الغالب، من مجموعة من القبائل فقد سعى إلى تفكيك هذه البنية التي كانت تجمعها روابط اجتماعية متينة (عصبية على حد تعبير ابن خلدون)، تجعلها تتعاون وتتساند فيما بينها عن وعي أو دونه. وقد قامت عملية التقسيم، على نحو ما يذهب إليه الأستاذ "بلقاسم رحمانى" على مبدأ غالب ومغلوب الذي عمد إلى سن تشريعات وقوانين كان هدفها خلق فوارق اجتماعية (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، صفحة 15). وقد كان نتيجة هذه السياسية أن أصبحت أغلب المدن المحتلة تعيش حالة طبقية تمثلت في:

أ. طبقة كبار الملاك: وهي تتصل بالطبقة التي باركت عملية الاحتلال الروماني للمدن النوميديّة واندмجت وتوافقت معه؛ ويصفهم الأستاذ بلقاسم رحمانى بقوله: "تصنف هذه الطبقة ضمن الذين نالوا رضا الاحتلال وأضاف إليهم بعض الدارسين من سموهم بالمندمجين الجدد، وهم المجندون وكبار الموظفين الذين قدموا خدمات جليلة للاستعمار الروماني فنالوا مكافأة المحتل" (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، صفحة 16)

ب. الطبقة البرجوتزية: وهذه الفئة تتصل بالمدن الإفريقية المحتلة والتي ظهر فيها موظفين ومثقفين مندمجين تماما مع الخصوصية الاجتماعية الرومانية؛ ويصفهم الأستاذ "عقون محمد العربي" بقوله: "وقد شكلت الحواضر الإفريقية بيئة انصهار حقيقي بين الإفريقيين والرومان الذين تجمعهم المواطنة، فظهر مجتمع جديد في تلك الحواضر، يدين بالولاء لروما وثقافتها، ولذلك لا نستغرب أن يكون القديس أوغسطين أكبر مكافح عن روما لأنه من عائلة إفريقية تنتمي إلى هذه الطبقة" (العربي، 2008، صفحة 277).

ج. طبقة الأحرار: وتتصل هذه الشريحة بمن جردوا من ممتلكاتهم مجهوداتهم وهم بذلك أحراراً لأنهم غير مندمجين وغير تابعين ولا يملكون إلا ناتج جهدهم بحيث أصبحوا بمثابة يد عاملة لدى الملاك الجدد الذين استفادوا من الاحتلال الروماني. إنهم، على حد تعبير الأستاذ "بلقاسم رحمانى" "بقية الأهالي، رأسمالهم قوة سواعدهم وحرّيتهم وصنفهم القانون على أساس أنهم أجانب، وتميزوا بان أملكهم انتزعت منهم في بدايات الاحتلال، وصنفوا في أدنى الرتب الاجتماعية وأصبحوا قوة عاملة لدى الملاك الكبار... ثم ازدادت وضعيتهم سوءاً بمرور الزمن، مما جعلهم يشكلون فيما بعد قوة ثائرة ضد الاستعمار الروماني، خاصة بعد أن أصبح وضعهم أقرب إلى وضعية العبيد" (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، صفحة 17).

د. طبقة العبيد: وترتبط هذه الفئة بالسكان الذين ثاروا على الاحتلال الروماني وخاصة أولئك الذين انتزعت منهم أملكهم وقاوموا المستعمر وهو ما جعله يسعى إلى إزلالهم من خلال إلحاقهم

بطبقة العبيد وتوكيل الأحرار منهم من خضعوا للأمر الواقع. إنهم، "الذين فقدوا حريتهم لوقوفهم ضد الاحتلال، يتوزعون على مختلف الأنشطة، فمنهم عبيد الأرض الذين عهد إليهم كبار الملاك بجانب كبير من العمل تحت تسيير العتقاء منهم، ومنهم عبيد الخدمة في قصور الأسىاء وقد جيء بهؤلاء الأخيرين في الغالب من شرق المتوسط ومن بلاد الإغريق من بيئة أكثر تحضراً أو على الأصح لها تقاليد في هذا الشأن. أما الإفريقي فلا ريب أنه يستنكف من خدمة البيوت، ويراهما تمس بكرامته التي لم يبق له غيرها ولذلك سيستغل للعمل في المزارع" (العربي، 2008، صفحة 278).

إذن، وبناء على ما سلف يتبين أن الاحتلال الروماني لما وجد أن أغلب المدن الإفريقية، على غرار "كالاماً" تشكل مجتمعات قبلية تحكمها ظاهرة العصبية فقد سعى إلى تفكيكها وذلك بتركيزه على سياسة نزع الملكية من شيخ العشيرة أو القبيلة واهنته عن طريق إلحاقه بأدنى السلم الاجتماعي في محاولة منه لإعادة رسم الخريطة الاجتماعية (إذلال أعزة القوم، وإعزاز أدلثهم)؛ وكان من نتيجة ذلك خلق نظام طبقي لم يكن معهوداً من ذي قبل. هذا فيما يتعلق بالخصوصية الاجتماعية؛ لكن ماذا عن الأساليب الثقافية والترفيهية التي اعتمدها الاحتلال الروماني في سبيل رومنة مدينة "كالاماً"؟

4.3- الخصوصية الثقافية والترفيهية:

يقول "محمد العربي عقون": "إن المدن الإفريقية خلال الفترة الرومانية كانت تتمتع بمرافق ترفيهية هامة تدل على رقي اجتماعي وعلى حياة حضارية زاخرة بالفنون ومختلف الألعاب التي كان يتبرع بتنظيمها أعيان تلك المدن بمناسبة اعتلائهم وظائف القضاء البلدي على الخصوص" (العربي، 2008، صفحة 261).

إن هذه المرافق التي شيدتها الإدارة الرومانية في مختلف المدن النوميديّة، على غرار مدينة "كالاماً"، كان الهدف منها عرض ونشر الثقافة اللاتينية من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من الاندماج الاجتماعي لسكان هذه المدن، وبالتالي تستمر وتطول مدة الاحتلال وتستمر عملية نهب واستنزاف الثروات؛ وعموماً يمكن إجمال هذه المرافق الثقافية، التي عملت على نشر الخصوصية الثقافية الرومانية، فيما يأتي:

أ. المدرجات: وتكون ضمن بنايات ضخمة ذات شكل بيضوي تقام فيها مراسيم الاحتفالات في الأعياد والمناسبات التي تخص ترقية إطارات وموظفي الدولة؛ ويصفها الأستاذ "عقون محمد العربي" بقوله: "هو مبنى فخم يتكون من قاعدة بيضوية الشكل وقمة مخروطية وله جداران، خارجي وداخلي، يبعدان عن بعضهما بحوالي 4.30م. ويفصل المدرجات عن الحلبة حاجز جداري يحمي المتفرجين من خطر الحيوانات الضارية وحيوانات السباق المستعملة في مختلف الألعاب، كما تنقسم الحلبة إلى قسمين يفصل بينهما جدار" (العربي، 2008، صفحة 262).

ب. المسرح: وهو فضاء واسع تعرض فيه مختلف التظاهرات التي تروج للثقافة الرومانية من خلال عرض أعمال معينة (مسرحيات، عروض غنائية... الخ) ضمن جو احتفائي احتفالي يحضر ضمنه عليه القوم؛ وقد وصفه الأستاذ "بلقاسم رحماني" بقوله أن المسارح "تعد من المنشآت المعمارية ذات الدور الثقافي البارز، حيث أدى دورا ثقافيا ترفيهيا، وامتاز بالضخامة وبأشكال هندسية رائعة. وقد قدمت على خشبته أعمالا أدبية كثيرة، تمثيلا وغناء بشكل حر مما ساهم في تثقيف الشعب. كما شهد تنظيم احتفالات عديدة في مناسبات مختلفة، منها الاحتفال بالشخصيات النافذة السياسية أو الدينية أو بمناسبات دينية أخرى كالاختفاء باله، حيث أن التقليد الروماني يقضي بان تكون الألعاب المسرحية جزءا من الاحتفال الرسمي بأحد الآلهة" (بلقاسم، العدد 02، جوان 2009، الصفحات 04-05). وفيما يخص مدينة "كالاما" هذا النوع من المعالم الأثرية، حيث "يتواجد في الجهة الغربية من المدينة القديمة، حيث يتموضع على سفح شديد الانحدار ويأخذ مسرح قالمة (كالاما) شكلا نصف دائري ويبلغ محوره 58.05 م (لي، العدد 06، 2007، صفحة 31) ج. الحمامات؛ وهي أماكن تعنى بالصحة العامة للسكان عرفت انتشارا لافتا خلال الفترة الرومانية حيث تروج لثقافة صحية بين قاطني المدن الرومانية؛ وضمن هذا السياق يقول "محمد العربي عقون" انه: "لا أحد ينكر بان الحمامات إبداع روماني محض، وتتكون الحمامات في المدن ذات العمارة الرومانية من عدة قاعات، غاية في الجمال يهندسها المعمارية المتناسقة ومنحوتاتها وزخارفها ولوحاتها الفسيفسائية" (العربي، 2008، صفحة 266).

وقد كان الاستحمام، في ظل الاحتلال الروماني، "طقسا، يوميا، وكان يوم المواطن الحضري ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الصباح للعمل والمساء للترفيه والترقية، باقي اليوم للنوم، وكانت الحمامات هي مكان الأنشطة الترفيهية فضلا عن دورها الصحي، فبعد عمل متعب يبدأ مع بدايات النهار الأولى تكون العودة إلى المنزل لتناول الغذاء، وبعد الزوال يتوجه الجميع نحو الحمامات لقضاء وقت يستمر إلى آخر النهار (موعد تناول العشاء)" (العربي، 2008، صفحة 267). وقد عرفت "كالاما" العديد من الحمامات التي كان يرتادها قاطنوها من أجل الاستحمام والعناية بصحة أبدانهم "فبقايا حمامات المدينة المتبقية تظهر ضخامتها وكبرها... والحمام مبني بشكل جيد وتقنيات بنائه يمكن أن تصعد تاريخه حتى القرن 2م، فهو مبني بعدة تقنيات، موادها من الحجارة والأجر المرصوف والممسوك بملاط كلسي، مع تغطية الوجه بالحجارة الصغيرة الحجم شبه منتظمة في الأبعاد وممسوكة بالملاط الإسمنتي القائم على المادة الكلسية. يتخلل صفوف الحجارة هاته صفوف من الأجر. إنها تقنية رومانية ذات الترتيب الممزوج فيها صفوف من الحجارة الصغيرة الحجم مرصوفة وممسوكة بالاسمنت الكلبي من تقنية opus testatum. أما الأبواب والأقواس والزوايا فقد استعمل فيها الحجارة المنحوتة الضخمة بشكل جيد. هناك قاعة كبيرة مستطيلة الشكل طولها 22م وعرضها 14م، فيها مشكاتان من أجل التماثيل" (لي، العدد 06، 2007، صفحة 32).

د. الساحات العامة (الفوروم): وهي فضاءات تتوسط المدن الرومانية تستغل كأماكن لإعلان قرارات الإدارة الرومانية وإقامة الحدود على الأهالي الثائرين عن الاحتلال الروماني؛ فضلا عن استغلالها لإقامة مختلف طقوس الثقافة الرومانية (الاحتفالات بالأعياد الموسمية). وتصفها الأستاذة "مريم طياب" بقولها إنها: "وُجِدَت بمختلف المدن ذات الطراز الروماني، كانت تعقد بها اجتماعات المجلس البلدي حيث تناقش مختلف القضايا السياسية والعسكرية والاجتماعية وكذا الثقافية والأدبية" (طياب، 2015/2014، صفحة 48). وفيما مدى تواجد ساحة عامة في مدينة "كالاما" فيقول صاحب الدراسة المتوفرة، لدينا، حول ذلك: "نحن نجهل مكان الساحة العامة (الفوروم) مع أن ذكرها جاء في كتابة تدعوها بالساحة العامة الجديدة (forum novum) والتي يظهر أنها من عهد السيفيريين. وهذا يعني تواجد ساحة عامة أولى قديمة (forum vetus) وساحة حديثة مثل مدن جميلة ولبتيسس ماغنا" (لي، العدد 06، 2007، صفحة 31).

إذن وبناءً على ما تقدم يتبين أن الاحتلال الروماني سعى إلى نشر خصوصيته الثقافية من خلال اعتماده على بناء العديد من المرافق الترفيهية والصحية التي كانت تؤدي وظائف نفعية لصالح الأهالي، ولكنها كانت تتضمن نظاما اجتماعية (قوانين، معايير، أعراف، قيم، عادات وتقاليد... الخ)، مثلت في الأصل رسائل لسكان هذه المدن المحتلة مفادها أن الدولة الرومانية أكثر قوة وأكثر تحضرا، وما على المغلوب إلا تقليد الغالب على حد تعبير العلامة ابن خلدون.

4- خاتمة:

إن أهم ما يمكن أن يستنتج مما تقدم هو أن مدينة "كالاما"، كغيرها من المدن النوميدية، قد عرفت الاستعمار الروماني، وهو استعمار استيطاني، وتأثرت بخصائصه الاجتماعية والثقافية بشكل متفاوت من سمة إلى أخرى؛ وللتوضيح أكثر نورد الجزئيات التفصيلية الآتية:

- أولا: يتوجب الإشارة إلى أن الخصوصية الاجتماعية والثقافية التي كانت تميز مدينة "كالاما" قبل مجيء الرومان، كانت مزيجا بين السمات والخصائص الفينيقية والنوميدية.

- ثانيا: وفيما يخص الخصوصية الدينية فرغم اعتماد الاحتلال الروماني لسياسة التنصير عن طريق إنشاء المعابد والكنائس وتقديم تحفيزات لمن يقبل عليها من الأهالي، إلا أنها لم تتجاوز المدن الكبيرة (ما يسمى بالعواصم) حيث ظل الدين محافظا على "إفريقيته" و متمسكا بترسبات وتراكبات الممارسات الدينية "البونية" خاصة في القرى والأرياف.

- ثالثا: وإذا جئنا إلى الخصوصية اللغوية لمدينة "كالاما"، فرغم محاولات الاستعمار الروماني لنشر اللغة اللاتينية بشتى الأساليب على غرار إجبارية التعليم بها، إلا أن الأهالي ظلوا متمسكين بلغتهم ولهجاتهم المحلية التي تطورت عن اللغة الفينيقية وأصبح يطلق عليها اسم "اللغة البونيقية".

- رابعا: أما فيما يتعلق بالخصوصية الاجتماعية فنجد أن الاحتلال الروماني كان له تأثير بالغ الأهمية على التركيبة الاجتماعية للأهالي، وذلك باعتماده على مبدأ الطبقة الاجتماعية، حيث قام

بتفكيك العشائر والقبائل عن طريق إجراءات نزع الملكية وإعادة رسم الخريطة الاجتماعية للسكان بناءً على الولاء والتوافق اللامشروط مع خصوصيته الاجتماعية والثقافية.

- خامساً؛ وفيما يخص الخصوصية الثقافية والترفيهية فنجد أن مدينة "كالاما" قد عرفت مرافق ترفيهية كان هدفها نشر الخصوصية الاجتماعية والثقافية الرومانية، وقد استفاد منها وانفتح عليها سكان المدينة؛ وفي المقابل بقي سكان القرى والأرياف محافظين على خصوصيتهم الاجتماعية والثقافية النوميديّة.

- وأخيراً؛ فإنه يتجلى بشكل واضح أنه كان للاحتلال الروماني بصمته الخاصة في المدن والحوضر الإفريقية، حيث أعاد رسم معالمها وكان لذلك تأثير بالغ الأهمية في سكان هذه العواصم الذين فرضت عليهم عملية الاندماج الاجتماعي والتكيف مع الثقافة الوافدة خاصة الأجيال اللاحقة التي عرفت خصوصية اجتماعية وثقافية جديدة، قامت على ذلك التلاقح بين خصوصية الأجداد (القديمة) وخصوصية المستعمر (الجديدة والوافدة) وهو ما يفسر ذلك الاستقرار النسبي الذي عرفته الحضارة الرومانية في الشمال الإفريقي.

قائمة المراجع:

- 01- بلعيد فاطمة الزهراء (2023): "مساهمة أنصاب الفترة البونية المحفوظة بمتحف المسرح الروماني في معرفة جانب من الحياة العقائدية والدينية بمنطقة قالمة، قراءة في ايكولوجيا الأنصاب البونية المحفوظة بمتحف المسرح الروماني". مجلة أثار، المجلد 12، العدد 01، جامعة الجزائر.
- 02- مبارك بن محمد الميلي (دون سنة): "تاريخ الجزائر القديم والحديث". الجزء الأول، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 03- محند أكلي اخربان (2017): "التعمير البشري بمنطقة قالمة (أصول سكان المدينة حسب معطيات النقوش)". مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المجلد 05، العدد 12، الجزائر، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.
- 04- محمد خير اورفه لي (2007): "كالاما (قالمة) دراسة وصفية للبقايا الأثرية للمدينة". مجلة أثار، العدد 06، الجزائر، جامعة الجزائر 2.
- 05- محمد البشير شنيقي (2003): "أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحوث ودراسات". الجزائر، دار الحكمة.
- 06- محمد البشير شنيقي (1985): "الاحتلال الروماني لبلاد المغرب وسياسة الرومنة 146 ق.م- 40 م"، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 07- مريم طياب (2015/2014): "النظم الاجتماعية في نوميديا (من مطلع القرن الأول ميلادي إلى نهاية القرن الثالث ميلادي)". مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية، الاجتماعية، والعلوم الإسلامية. جامعة العقيد احمد دراية- ادرار، الجزائر.

- 08- محفوظ قداش (1993): "الجزائر في العصور القديمة". ترجمة صالح عباد، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 09- عبد الحميد عمران (2013): "نوميديا أثناء الاحتلال الروماني". مجلة عصور الجديدة، المجلد 03، العدد 10، جامعة وهران- الجزائر مختبر البحث التاريخي.
- 10- عقون محمد العربي (2008): "الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم". الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 11- رحمان بلقاسم (2009): "اثر الاستعمار الروماني في الجوانب الثقافية والاجتماعية في بلاد المغرب القديم". مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد: 02، الجزائر جامعة الحاج لخضر- باتنة.